تجّار الآخرة

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ 2007/11/9م

بين النجاة والهلاك مقابلةٌ أو تقابل، فليس الذي يطلب هالكًا كمن يطلب باقيًا، وقد جاء في القرآن الكريم توصيفٌ لقوم طلبوا الباقي وآثروه على الزائل الفاني، حيث جاء في سورة فاطر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي لن تهلك ولن تفنى، ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: 29-30].

وفي الطرف المقابل يسمي الله سبحانه وتعالى جهنم دار البوار، أي دار الهلاك، وليس ضد البوار الخلود، فالخلود متقرِّرٌ في الجنة وفي جهنم، لكن الجنة دار تنعم وسعادة، فليس فيها أي معنىً من معاني الإزالة أو الإفناء أو الإهلاك، أما جهنم فإنها ضد ذلك تمامًا.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ فاستعملوا ما أنعم الله تعالى عليهم في غضبه، ولم يستثمروه ليكون الباقي، ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: 28-29].

وقال سبحانه وهو يخاطب المنافقين: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح:12] أي كنتم في خندق الهلاك، موصوفين بالهلاك.

وعلى هذا فيكون القرآن الكريم قد قدم إلينا صورتين لفريقين:

- فريق وصفهم الله سبحانه بأنهم يطلبون الباقين: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾.

- وفريق آخر وصفهم بالهلكى وبأنهم أصحاب الدار المُهلكة الهالكة التي هي: ﴿دَارَ الْبَوَارِ، جَهَنَّمَ﴾.

وبهذا التصنيف يعتبر من التقابلات النادرة، ابحثوا عن التقابلات في القرآن وستفهمون دروسًا كبيرة، لاسيما حينما تكون الصورة في القرآن نادرة لا تتكرر كثيرًا.

ويعطي ربنا سبحانه وتعالى لهذا الصنف أوصافًا ثلاثة:

1- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾.

2- ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

3- ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

وبهذا لا يقدم صورة مجردة، إنما يعطيها بُعدها المعنوي ويعطيها أسبابها ومقدماتها.

وهذه الأوصاف الثلاثة تدعونا للتأمل، وأنتم جميعًا ممن يرجون تجارة لن تبور.

1- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾: وتلاوة كتاب الله تبارك وتعالى ليس المقصود منها أنهم يكثرون من قراءة القرآن الكريم وحسب، لا.. فالقرآن يفسر بعضه بعضًا، فالله سبحانه وتعالى قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ قال قتادة: أي القرآن، ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هم الذين إذا مروا بآيةِ رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: 121]

وهكذا فالمقصودُ من التلاوة حقَّ التلاوة الانفعالُ الإنسانيُّ لكلِّ آية، فلا تمر آية في القرآن الكريم إلا وينفعل انفعالاً يتناسب معها، فإن كانت طلبًا أجاب الطلب، وإن كانت خبرًا عظّم ذلك الخبر وانفعل له، فيكون وهو يقرأ القرآن الكريم منفعلاً مع كل آية من آياته، مهتزًّا لما يسمعه من هذا الخطاب الجليل العظيم.

وقال الله سبحانه وتعالى وهو يضع لنا بيئة تلاوة القرآن: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: 113-114] وها هنا رسم بيئة تلاوة كتاب الله تبارك وتعالى رسمًا تامًّا.

- ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي مَن آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم، فربنا تبارك وتعالى يمتدح أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

- ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ﴾ لكن انظر بعدها ماذا وصف في تلك البيئة التي يُقرأ فيها كتاب الله تبارك وتعالى، قال:

- ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ وهنا حين يُصرف لفظُ "يسجدون" إلى معناه الاصطلاحي يصبح لدينا مشكلة، لأن الحكم المتفق عليه أن التلاوة لا تكون حال السجود، فكيف يقول الله سبحانه وتعالى هذا؟

ذهب كثير من المفسرين إلى أن المقصود بـــ: "يسجدون" أي يصلون، والذي أذهب إليه أنه يُصرف في هذه الآية إلى المعنى اللغوي، الذي هو غاية التذلل، فكيفما كان الإنسان يكون ساجد القلب لله تبارك وتعالى، قائمًا أو راكعًا أو مُتاجرًا أو صانعًا... كيفما تحرك وكيفما سكن يكون في حال سجود قلبه، وفي عبوديته لله سبحانه وتعالى، وهو الذي أصبح في حال سجود دائم، فهو الساجد لله تبارك وتعالى، ولو كان قائمًا فحاله حال الساجد.

- ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وهذا تفسيرٌ أيضًا للحال المستصحب، فقد رجا الله واليوم الآخر: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

هكذا يتوجه قلب الإنسان إلى الله تبارك وتعالى، وهكذا يستحسن الدار التي هي دار الرضوان، والتي هي دار النعيم، التي هي الجنة التي أعدت للمتقين، فآمن لله وعظّمه وتوجَّه بقلبه إليه، وانتظر ذلك الموعد الذي تشتاق إليه روحه ويشتاق إليه قلبه، فاليوم الآخر بالنسبة للمؤمن موعد اللقاء مع الحبيب، وموعد اللقاء مع من أحب الحبيب أيضًا.

- ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ فلم يكونوا أصحاب الصوامع وهم يتلون كتاب الله، ولا أصحاب الكهوف، ولا أصحاب العزلة والانـــزواء، إنما تفاعلوا مع الأمة، وتفاعلوا مع الواقع، وتفاعلوا مع البيئة، فأمروا بالمعروف لأنهم أرادوا التغيير إلى المعروف، ونهوا عن المنكر لأنهم أرادوا التغيير بمعنى البعد العام عن ذلك المنكر بكل علائقه ومضموناته ومعانيه.

- ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ فوصفهم الله سبحانه هنا بـــ: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ ووصفهم في مواضع أخرى بالسابقين، فقال مثلاً: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: 10-11].

- ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: 113-114] هذه هي بيئة تلاوة كتاب الله.

فالذين يتلون كتاب الله في هذه البيئة، يتلونه حق تلاوته في هذه البيئة التي يكون فيها في حال سجودٍ مستصحَبٍ دائم، مؤمنًا بالله وباليوم الآخر، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، مسارعًا في الخيرات الظاهرة والباطنة.

ثم يأتي بالوصف الثاني الذي هو:

2- **﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾**: وما قال: "وصلّوا"، وقد قرأت كتاب الله تبارك وتعالى وأنا أطلب منه أن يعطيني تفسيرًا لـــ: "أقاموا الصلاة".

والقرآن يمكن لك أن تأخذ منه شيئًا كبيرًا، والذي يوفَّق فيصبح من تلاميذ القرآن ينتسب حقيقة عندها إلى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

والذي رأيته من باب الاقتران: القرآن حين يتحدث عن شيء يتحدث بالترتيب، وهذه ظاهرة يعرفها من يقرأ القرآن ويتدبره، وقد استعرضت في القرآن لفظ "وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ" من أجل أن أرى المقدمات التي تسبق "وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ"، واسمعوا إلى ما يقوله القرآن:

1- ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأعراف: 170] أي إذا كان هذا الإنسان حاله حال الكتاب، هكذا باختصار، كما قال هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ ففسر "يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ" هنا بقوله: "يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ" حتى صار حالهم حال الكتاب، فمن كان حاله مع الكتاب، يكون مقيمًا للصلاة.

2- ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الشورى: 38] فلم يكن قارئًا إنما كان مستجيبًا، فهو سامع ومنفعل، وشتان بين من يقرأ وهو يروي، ومن يقرأ ولكنه يسمع ويستمع ويستجيب.

ففي الأولى قال: "يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ"، وهنا قال: "اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ"، فإذا أردت أن تذوق معنى إقامة الصلاة لابد أن تكون ممن يمسِّكون بالكتاب وممن استجابوا لربهم، فلا يذوق إقامة الصلاة من أعرض عن الكتاب، ولا يذوق إقامة الصلاة من سمع آية في الكتاب فأعرض عنها وعصى وخالف، فلا يذوقها إلا من ذاق معنى الاستجابة لله تبارك وتعالى.

3- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: 277] إذًا: فالذي كان الإيمان في قلبه ضعيفًا، والذي لم يكن من أصحاب العمل الصالح، لن يذوق معنى إقامة الصلاة.

4- ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: 177] فذكر تفصيلاً للإيمان والعمل الصالح يسبق إقامة الصلاة.

5- ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الرعد: 22] فالمتململ والضجر لا يذوق معنى إقامة الصلاة، لكن الصابرَ الثابتَ على أمر الله سبحانه المنتظرَ لوعد الله – ولا يخلف الله تعالى وعده، ثقوا بوعد الله – فإذا تحقق بالصبر ذاق إقامة الصلاة، إذا تحقق مع تمسكه بالصبر، فلم يتململ و لم يضجر، يذوق إقامة الصلاة ومعنى إقامة الصلاة.

6- ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [فاطر: 18] فإذا وجدت الخشية في القلب يذوق معنى إقامة الصلاة.

إذًا: هكذا يقدم إلينا القرآن مقدمات إقامة الصلاة، فإذا أراد الإنسان أن يكون من أصحاب إقامة الصلاة فليتحقق بهذه المقدمات.

ثم انتقل إلى الوصف الثالث الذي هو:

3- ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: وهؤلاء هم الفريق الناجي الذي طلب تجارةً لا تهلك أبدًا.

كونوا من هذا الصنف الذي يطلب تجارة لن تبور، فما هو هذا الوصف الثالث في هذا الصنف؟

وفي موضوع الإنفاق استقرأت في كتاب الله تبارك وتعالى عنوانين اثنين: **أسباب الإنفاق، وصفاته**، أي متى يستطيع الإنسان أن يكون منفقًا، وما هو وصف إنفاقه؟

أولاً- أسباب الإنفاق:

1- الإرادة المخلصة لله التي تقترن مع النفس المرضية المثبِّتة:

قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ فإذا تحقق له أنه يريد الله، ويريد رضاء الله لا رضاء الخلق: **"لا تجعلوا رضاء الخلق غاية فإرضاء الناس غاية لا تدرك"** - فلنجعل جميعًا مقصودَنا إرضاءَ الله ورضوانه - عندما يكون هذا مقصودًا لنا لا نبالي، وعندها نثبُت في السراء والضراء، فإذا وجد في القلب هذا المقصود الذي هو ابتغاء مرضات الله يستطيع أن يكون منفقًا، وإذا لم يوجد في قلبه لا يستطيع أن يكون منفقًا، ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: 265] فالنفس تكون في أول أمرها أمّارة بالسوء ومثبطة، فإذا صارت راضية مرضية فإنها تدفع صاحبها إلى هذا الإنفاق، كما تدفع صاحبها إلى الخيرات، لهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ [الأعلى: 14] فلما زكت نفسه وصارت راضية مرضية ثبتت صاحبها، فصارت نفسه تدفعه.

وعلى هذا فانظر إلى نفسك، ما وصف نفسك؟ هل وصف نفسك أمَّارة، أم لوَّامة، أم أنها تلك النفس التي زكت فصارت راضية مرضية؟

فالسبب الأول: إرادةٌ مُخلِصة تطلب رضوان الله، مع نفس مرضية مُثبِّتَة.

2- تذكُّر الآخرة: فالذي لا يتذكّر إلا الدنيا، لا يستطيع أن يكون مُنفِقًا، فكلما تكرَّر مشهدُ الآخرة في قلبه، اندفع إلى الإنفاق أكثر وأكثر.

وهكذا حينما سأل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الصديقَ: **(ما أبقيتَ لهم يا أبا بكر؟)** قال: **"أبقيتُ لهم اللهَ ورسولَه"**، فاستطاع أن ينفق مالَه كلَّه.

وقال سبحانه: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ﴾ وانظر إلى هذا التحبُّب ما أحلاه!!

إن الذي يتذوّق معنى هذه الآية سيكون مُنفِقًا.

حين يقول الأستاذ لأولاده: يا أحبابي.. يا أولادي.. يا أصدقائي.. فإنه يُهيئهم لسماع الدرس.

والربُّ الأعظم ربُّنا سبحانه يقول لعباده: ﴿قُل﴾ ويخاطب عبدَه الأكملَ محمدًا صلى الله عليه وسلم، فيجعل خطابه عن طريق أحبِّ أحبابه إليه فيقول: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ﴾ [إبراهيم: 31] فذكَّرهم بالآخرة ليُحفِّزهم على الإنفاق، وليصرف عن قلوبهم التعلق بالدار الدنيا وحدها، فإذا تعلّق بالآخرة استطاع أن يرقى في مشهد قلبه إلى ما هو خير من الدنيا.

وقال: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: 10] فذكَّره سبحانه بالكلمة التي سيقولها عند موته.

فأول شيء يتذكره عند موته: يا ليتني أنفقت: "فَأَصَّدَّقَ"، قبل أن يقول: "يا ليتني كنت صالحًا"، لما يرى عند الموت من فضل الصدقة والإنفاق، فأول شيء يتذكّره: يا ليته أنفق، لأنه يرى ماذا أعدَّ الله سبحانه وتعالى من الكرامة للمنفقين قبل موتهم.

ينتظر بعد موته: هل يُخرِجون على روحه شيئًا من المال، ليصل إليه هدية وكرامة؟!

أنت حيّ، وبيدك المال، وتستطيع أن ترسل إلى الآخرة ما أردت، وتنتظر ورثتك ليتذكَّروك أو لينسوك؟!

فأول ما يخطر على باله يقول: "فَأَصَّدَّقَ".

وقال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 261– 262]

3– قيام الليل: قال سبحانه: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: 16] فالذي لا يذوق حلاوة قيام الليل لن يذوق حلاوة الإنفاق، فقيام الليل باعث في النهار على الإنفاق.

4– الترابط بين الإخوان والشورى فيهم: فهو يبعث على الإنفاق، لأنه يُذكِّر الإنسان بالتكافل والتكامل الذي هو وصف الجسد الواحد المترابط، قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى:38]

فبيّن أن الوصف الذي يسبق الإنفاق، إنما هو الترابط والشورى التي يكون فيها ذلك الفرد جزءًا من جسدٍ واحدٍ متكافلٍ ومتكامل.

يقول سيدنا علي رضي الله عنه: **"عشرون درهمًا أعطيها أخي في الله أحبُّ إليّ من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين"**.

5- الشعور بالمسؤولية عن المال: أي هل هذا المال ملك تامٌّ لي، أم أنني مؤتمن عليه؟

قال سبحانه: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7] فإذا شعر الإنسان أنه مؤتمن، كأمين الصندوق على المال، فإنه يستطيع الإنفاق ولا يجد غضاضة فيه.

هذه الصفات الخمسة المذكورة في القرآن هي أسباب الإنفاق:

إرادة مُخلِصة ونفس مُثبِّتة - تذكُّر الآخرة - قيام الليل - الترابط بين الإخوان والشورى فيهم - الشعور بالمسؤولية عن المال.

ثانيًا- صفات الإنفاق: وقد قدَّم القرآن الكريم إلينا أوصافًا ثلاثة:

1- الدوام والاستمرارية: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ فالإنفاق ليس أمرًا عارضًا، أي ليس حالاً، كأن سمع عِظةً، فانفعل لها، فأنفق، لا.. بل صار مقامًا، فانتقل - كما يقول أصحاب التربية - من الحال إلى المقام، فصار وصفًا دائمًا، وصار سلوكًا مستمرًا، ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 274].

2- إيمانية المنطلق لا مادّيته: وكيف يمكن أن يكون الإنفاق إيمانيَّ المنطلق لا مادِّيَّ المنطلق؟

حين يكون مُستنِدًا إلى كمِّ المادة، أي إلى عدد وقيمة، فإنه يكون مادّيًّا، وحين يستند إلى الوعد وإلى ما عند الله، يكون إيمانيًّا.

إذا استند إلى حقيقة غيبية يكون إيمانيًّا، وإذا استند إلى كمٍّ مادِّيّ يكون مادّيًّا، فإذا مَلَك كثيرًا من المال أنفق، وإذا ملك قليلاً من المال لم يُنفِق، لأنه استند إلى قيمة مادية.

انظر ماذا يقول القرآن: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء﴾ [آل عمران: 133-134] أما المنفق في السراء فإنه مما يسهُل على الإنسان، لأن المال عنده كثير، أما الإنفاق في الضراء فهو حينما لا يكون لديه من المال إلا القليل.

وقد نقلت إليكم يومًا من الأيام من على هذا المنبر ما نقله صاحب الحِلية من ذلك الحوار بين شقيقٍ البلخيّ وإبراهيم بن أدهم رحمة الله عليهما، حين قال شقيق لإبراهيم: **"نحن إذا رُزقنا أكلنا، وإذا مُنعنا صبرنا"**، فأجابه إبراهيم: **"لا يا شقيق، هكذا تفعل كلابُ بلخ، نحن إذا رُزقنا آثرنا، وإذا مُنعنا شكرنا وحمدنا"**.

هكذا يكون المنفقون مُنفقين في السراء والضراء، عندها يكون إنفاقهم إيمانيً المنطلق لا ماديًّا.

3- انتقائية النوع: فيستطيع الإنسان أن يُنفق مما تعفه نفسه، أي مما فَضَل عن حاجته، لكن حينما نقرأ في القرآن وصف الإنفاق، نجده يدعو إلى ضد ذلك:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: 267]

﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 92]

إذًا: هكذا يكون إنفاقه انتقائي النوع، لا يكون في ذلك موافقًا لهوى النفس، لكنه يكون في ذلك موافقًا لمرضاة ربه تبارك وتعالى.

هذا الصنف هو الصنف الذي يرجو تجارة لن تبور، وهو الموصوف بقوله:

﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ يُعطيهم الأجرة وزيادةً تليق بفضله، وتليق بجلاله وعظمته، ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

اللهم اجعلنا ممن يرجون تجارة لن تبور، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتّبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.